عثور الجدود على النقود

تزدخر دور الآثار في بقاع العالم المختلفة ، بمجاميع من النقود القديمة ، ويتنافس الهوون [1] للطرائف والتحف في اقتناء ما يقع اليهم من نوادر قطعها .

وللنقود الاسلامية بين هاتيك المجاميع الشأن الرفيع : فقلّ ان تخلو دار تحف من طائفةٍ منها ، وهي لعمر الحقّ شيء كثير وفير ! ذلك انها لم تُضرَب في عصر واحد ، ولا في قطر دون آخر . بل كان الخلفاء والأُمراء والسلاطين وغيرهم من صدور الناس ورؤسائهم ، منذ أوائل ايام بني أمية ، حتى الأزمنة المتأخرة القريبة عهد بنا ، يُعنون أبلغ العناية في ضرب نقود الذهب والفضة والنحاس بأسمائهم ، فكان لهم الدنانير والدراهم والدوانيق والفلوس وغير ذلك من أصناف النقود التي كانوا يتعاملون بها . ولا مشاحة في انه تتكوّن بدرس ما كُتب على وجوه هاتيك النقود ، من أعلام الناس ، وأسماء المدن ، وسني الضرب ، وغير ذلك من المدوّنات الجليلة الفائدة ، صفحةٌ كاملة ، او تكاد تكون كاملة ، يتمثل لنا فيها « تاريخ الاسلام » في ماضيهِ البعيد والقريب .

ولو أن ما ضُرِب من النقود حوفِظ عليه مدى الأجيال والسنين الخالية ، وانتهى الينا بكماله ، لصار لنا من ذلك التراث الجسيم كنوز تملأ خزائن بأسرها . ولكن هيهات أن يكون ذلك ! فانّ العوامل المختلفة تضافرت على إضاعة أغلب ذلك التراث ، وفي مقدّمتها يد الانسان العاتية ، التي لا تفتأ تهدم اليوم ما بنته أمس ، وتُتلف ما أصلحت ، وتبيد ما صنعت ، عمدتْ إلى كثيرٍ من تلك النقود ، فكسرت هذه ، وقرضت من هاتي ، وصهرت تلك ، ومحت ما على الأُخرى . فأضاعت الشيء الكثير من تلك المخلّفات المثمّنة ، وعندنا من الشواهد والأمثلة على مثل هذا التصرّف الرديء ما يكفي في إثبات ما نقول :

(1) الهوون جمع الهوي أي المعنيّ . وهو يقابل Amateur في الانكليزية والفرنسية .

ولقد عمدنا في هذا المقال ، إلى ايراد شيء مما وقفنا عليه من الأخبار القديمة المتعلقة بعثور الجدود على قِطع النقود في الأزمنة السالفة ، والتصرُّف بها بعد ذلك في مختلف الوجوه .

من ذلك ، ما رواه أبو عبيد القاسم بن سلاّم ، المتوفى سنة ٢٢٤ هـ (٨٣٨ م) في كلامه على « الخمس في المال المدفون » وما يتبع في ذلك الشأن من الأحكام ، قال : « حدّثنا هشيم قال : أخبرنا مجالد عن الشعبي : أنّ رجلاً وجدَ ألف دينار مدفونةً خارجًا من المدينة ، فأتى بها عمر بن الخطاب ، فأخذ منها الخمس مائتي دينار ، ودفع الى الرجل بقيتها . وجعل عمر يقسم المائتين بين مَن حضره من المسلمين الى ان فضل فضلة . فقال عمر : أين صاحب الدنانير ؟ فقام اليه ، فقال له عمر : خذْ هذه الدنانير فهي لك [1] » .

ونظير هذا الخبر ، ما ذكره ابن سلاّم أيضًا بقوله : « حدّثنا سفيان بن عيينة ، عن اسماعيل بن أبي خالد ، عن الشعبي : أن عليًا أُتيَ برجلٍ وجد في خَربة ألفاً وخمسمائة درهم بالسواد . فقال عليٌّ : لأقضينّ فيها قضاءً بينًا ، إن كنت وجدتها في قرية خربة تحمل خراجها قرية عامرة ، فهي لهم . وان كانت لا تحمل ، فلك أربعة أخماس ، ولنا خمس . وسأطيبه لك جميعًا [2] » .

ولم يتحقق عندنا ما كان نوع هاتيك الألف الدينار الوارد ذكرها في الخبر الأول ، ولا هذه الألف والخمسمائة درهم المذكورة في الثاني ، أكانت نقوداً رومية أم فارسية أم غير ذلك من صنوف المسكوكات المضروبة قبل الاسلام . لأن النقود العربية ، في الواقع ، لم تكن قد ضُربت في أيام عمر ولا في أيام علي ، بل كان أوّل العهد بضربها في أيام الخليفة عبد الملك بن مروان الأموي ، وقد حكم من سنة ٦٥ الى ٨٦ للهجرة (٦٨٤ — ٧٠٥ م) على هو معروف في كتب التاريخ .

وجاء في الكامل للمبرّد قوله : حدثني التوزي عن ابي عبيدة والأصمعي عن

(١) كتاب الأموال [طبع القاهرة سنة ١٣٥٣هـ بتحقيق محمد حامد الفقي . ص ٣٤٢ الرقم ٨٧٤] .
(٢) كتاب الأموال [ص ٣٤٢ — ٣٤٣ الرقم ٨٧٥] .

أبي عمرو ، قال : قال لي رجلٌ من أهل القريتين [باليمامة] أصبتُ ههنا دراهم ، وزن الدرهم ستة دراهم واربعة دوانيق من بقايا طسم وجديس ، فخفتُ السلطان فأخفيتها[1] »

ومن عجيب الاتفاقات ، ما حصل لأحمد بن طولون : أمير الديار المصرية والشامية ، المتوفى سنة ٢٧٠ هـ (٨٨٣ م) . فقد نقل أبو محمد عبد الله بن محمد المديني البلوي ، مؤرخ سيرته ، انه ركب ذات يوم الى الصيد في مصر ، « فلما أمعن في الصحراء ، ساخت في الأرض يد فرس بعض غلمانه ، وهو رمل ، فسقط الغلام لنزول يد الفرس كلها في الرمل ، فوقف عليه احمد بن طولون : وأُخرجت يد الفرس ، فنظر فاذا بفتقٍ ، ففتح وأصاب فيه من المال ما كان مقداره الف الف دينار ، وهو المطلب[2] الذي شاع خبره وكُتب به الى العراق وكتب احمد بن طولون بخبره الى المعتمد ، يستأذنه فيما يصرفه فيه من وجوه البرّ أو غيرها مما يأمره به ، فكتب اليه المعتمد يأمره بأن يصرفه في وجوه البر . فبنى منه البيمارستان . ثم أصاب بعده في الجبل مالاً عظيماً فبنى منه الجامع ، وأوقف جميع ما بقي من المال في الصدقات ، فكانت صدقاته ومعروفهُ لا تحصى كثرة[3] » .

وقد تطرقَ غير واحدٍ من المؤرخين[4] الى ذكر الخبر في اكتشاف هذا الكنز الدفين من الدنانير ، وذلك بما لا يخرج عما نقله البلوي في هذا الصدد ، فاكتفينا بالاشارة الى ذلك .

---

(١) الكامل للمبرد [٢ : ٢٥٤ المطبعة الأزهرية] . (٢) المطلب ، ويُجمع على المطالب : لفظة كان يطلقها الأقدمون على الكنوز . قال المسعودي [مروج الذهب ٢ : ٤١٤ طبع باريس] . « لمصر أخبار عجيبة من الدفائن والبنيان ، ومما يوجد في الدفائن من ذخائر الملوك التي استودعوها الأرض وغيرهم من الأمم ممن سكن تلك الأرض ، وتُدعى المطالب الى هذه الغاية » . والمسعودي قال ذلك القول في سنة ٣٣٢ للهجرة (٩٤٣ م) . وذكر أيضاً (المروج ٢ : ٤١٧) « أهل الدفائن والمطالب » . وقد ظلَّ استعمال هذه اللفظة شائعاً حتى زمن المقريزي المتوفى سنة ٨٤٥ هـ ١٤٤١ م على ما أورده في خططه . والقوم « المطالبية » هم الباحثون عن هاتيك الكنوز .

وذكر ابن النديم في الفهرست [ص ٣١٨ طبعة فلوجل = ص ٤٤١ من طبعة مصر] تأليفاً لبعض المصريين ، عنوانه « كتاب المعادن والمطالب والكنوز » وهو ، على ما يبدو من عنوانه ، من أجل الكتب وأنفعها ، ولكنه ضائع فيما نعلم . (٣) سيرة أحمد بن طولون للبلوي [بتحقيق محمد كرد علي بك . دمشق ١٩٣٩ ، ص ٧٦] . (٤) راجع مثلاً : المنتظم لابن الجوزي ٥ : ٧٢ ، وخطط المقريزي ٤ : ٣٩ مطبعة النيل ، وشذرات الذهب لابن العماد الحنبلي ٢ : ١٥٧ .

ويبدو من سيرة أحمد بن طولون أن الحظّ كان أليفه في أيام عزّه واقباله. فقد خدمه حسن الطالع غير مرّة في اكتشاف كنوزٍ من النقود القديمة، كانت مطمورة في بعض البقاع العتيقة في مصر — وما أكثر تلك البقاع هناك! — مما عاد عليه وعلى رجال حاشيته بأجزل النفع وأوفر الفائدة. حكى البلوي[1] مؤرخ سيرته في هذا الصدد خبراً طريفاً ذا فوائد تاريخية، إليك نصه:

«وحدّث نسيم الخادم قال: ركب مولاي [أحمد بن طولون] الى الأهرام، فأتاه الحجاب بقوم عليهم ثياب صوف، وفي أيديهم مساح ومَعاوِل. فسألهم عما يعملون، فقالوا: نحن قوم نطلب المطالب. فقال لهم: لا تخرجوا بعد هذا الوقت إلا بمنشور[2]، ورجل من قِبلي يكون معكم[3]. فقالوا: سمعاً وطاعة للأمير ايده الله. فسألهم عما رُفِع اليهم من الصفات، فذكروا له انّ في سمت الأهرام مطلبًا قد عجزوا عنه، لأنهم يحتاجون في إثارته إلى جمع كبير، ونفقات واسعة. فإن فيه مالاً عظيماً. فنظر مولاي إلى شيخٍ من اصحابه يُعرف بالرافقيّ من أهل الثغر فضمه اليهم. وتقدّم الي[4] عامل معونه[5] الجيزة في دفع جميع ما يحتاجون اليه

(١) وقد نقل هذه الرواية عنه: تقي الدين المقريزي في خططه ١: ٦٦، وكذلك في رسالته «شذور العقود في ذكر النقود» راجع ذلك في الصفحة ٥٤ — ٥٧ من طبعة الأب أنستاس ماري الكرملي، ضمن كتابه: النقود العربية وعلم النميات القاهرة ١٩٣٩. وص ١٢ من طبعة الجوائب باستانبول سنة ١٢٩٨ هـ. (٢) في المقريزي: إلا بمشورة. (٣) قابل هذا بما ورد مثلاً في «قانون الآثار القديمة» العراقية، رقم ٥٩ لسنة ١٩٣٦، فقد نصت المادة ٤٠ منه على انّ حق التنقيب عن الآثار القديمة، ينحصر في الحكومة وفي الهيئات أو الأفراد الذين تخوّلهم ذلك وفقاً لأحكام هذا القانون. فلا يسوغ لأحد ان يُقدم على التنقيب عن الآثار القديمة بدون أن يحصل على اجازة رسميه، حتى ولو كانت الأرض ملكاً له. وفي الفقرة ح من المادة ٤٤، وكذلك في المادة ٤٦ من هذا القانون، إشارة الى الممثل الذي تندبه مديرية الآثار القديمة، ليرافق البعثة التنقيبية، ويقف على الإثارة والاستحاثة، فيكون همزة الوصل بين المديرية والبعثة في أثناء التنقيب. (٤) تقدم الي: بمعنى أمر. (٥) عامل المعونة، ويسمى أيضاً صاحب المعونة، أو والي المعونة، أو ناظر المعونة هو على ما قال الشريشي في شرح مقامات الحريري (١: ٣٩١ طبعة بولاق سنة ١٣٠٠ هـ؛ في شرح المقامة الثالثة والعشرين): والي الجنايات، يقال: ولي فلان المعونة أي ولي العون، أي ولاّه السلطان عونه على حفظ المدينة.

من الرجال والنفقات . وانصرف مولاي ، فأقام القوم مدةً يعملون حتى ظهرت لهم العلامات . فوافانا الرافقي وأعلم مولاي بذلك ، وأن أمره قد قَرُب . فركب وسرنا معه حتى وقف على الموضع . فلما رآه الناس جدُّوا في الحفر ، فكشفوا عن حوض كبير عظيم مملوء دنانير ، وعليه غطاء مكتوب عليه بالبزنطية[1] ، فأحضروا من قرأه فكان : أنا فلان بن فلان الملك الذي ميز الذهب من شوْونه [شَوْبِهِ] وغشه وأدناسه ، فمن أراد ان يعلم فضل مُلكي على مُلكه ، فلينظر الى فضل عيار ديناري على عيار ديناره ، فان مُخلص الذهب من الغش مُخلص في محياه وبعد مماته . فقال مولاي : الحمد لله يا نسيم . ما نبهتني عليه هذه الكتابة أحبّ اليَّ من المال ، ثم أمر لكل رجل كان يعمل فيه بمائة[2] دينار ، ووفى الصناع أجرتهم ، ووهب لكل رجل منهم خمسة دنانير ، ودفع الى الرافقيّ منه ثلاثمائة دينار ، وقال لي : يا نسيم ، خذْ لنفسك منه ما شئتَ ، فقلتُ ما يأمرني به مولاي . فقال لي : خُذْ منه ملء كفيك جميعاً ، وخذ من غيره من بيت المال مثل ذلك مرَّتين ، فاني أشح على هذا . فبسطتُ كفي فملأهما ، فحصل لي منه الف دينار ، وكان عيار الدينار منه أجود من عيار السندي بن شاهك ومن عيار المعتصم ، ولم يكن يُري أجود منهما . فتشدَّد مولاي من ذلك اليوم في العيار ، حتى لحق ديناره

(١) قال ناشر الكتاب محمد كرد علي بك : إنها اللغة التي يُتكلم بها في بزنطية وهي اليونانية . وفي خطط المقريزي وكذلك في رسالته في النقود ، ص ١٣ من طبعة مطبعة الجوائب : البربطية بدل البزنطية . ويقول الأستاذ فييت في تعليقاته على الخطط المصرية : إن الأقرب ان تُقرأ باللغة البرابية لغة البرابي . والبرابي جمع بربا كلمة قبطية وهي الهياكل لقدماء المصريين ، قاله العلامة كرنكو في تعليقاته على كتاب الجماهر للبيروني اهـ . وقال الأب أنستاس ماري الكرملي (النقود العربية وعلم النميات حاشية الصفحه ٥٦) : « البربى بناء كثير التعاريج والتلافيف ولا سيما ما كان منها في ديار مصر ، ويُرى من نظائرها في اقريطش ، وفيها كتابات في اللغة المصرية القديمة ، ويسميها الغربيون الكتابة الهيرغليفية ، والأحسن لنا العرب ، أن نقول : البربوية . وهنا دليل على أن بعض القبط كان يقرأ البربوية ويفهمها ، وذلك في سنة ٨٧٠ للميلاد . وشمبوليون قرأها في سنة ١٢٣٧ للهجرة أي سنة ١٨٢٢ للميلاد . (٢) في خطط المقريزي : بمائتي دينار . وكذلك ما في رسالة النقود .

بالعيار المعروف به ، وهو الأحمدي[١] الذي لا يطلى[٢] بأجود منه[٣] » .

وفي كتاب « نشوار المحاضرة » للقاضي أبي علي المحسّن التنوخي ، المتوفى سنة ٣٨٤ هـ (٩٩٤ م) ، وهو من أطرف التصانيف القديمه وأحفلها بالفوائد ، إشارة خفيفة الى ما كان يعثر عليه الناس قديمًا من قطع النقود في بعض أنحاء واسط والبصرة مما يلي الطفوف . وهي هناك أخربة عريقة في القدم غنية بآثارها « فقد يجد الناس ، ممن يجتاز بذلك الموضع أو يقصده ، دراهمَ وجواهرَ حول تلك الخربات والقبة ، وقد يأوي الى تلك الخربات النعام وتبيض فيها لخلوّها وانقطاع الناس عن الاجتياز بها إلاّ في الحين بعد الحين[٤] » .

ومن أحاسن الأخبار الواردة في هذا الباب ، ما نقله التنوخي في كتاب « الفرج بعد الشدّة » فقال ما هذا نصه : « حدّثني ابو الربيع سليمان بن داود ، وكانت جدّته تُعرف بشمسة قهرمانة ، كانت في دار القاضي أبي عمر محمد بن يوسف رحمه الله قال : كان في جوار القاضي قديمًا رجل انتشرت عنه حكاية وظهر في يده مالٌ جليل بعد فقرٍ طويل . وكنتُ أسمع ان ابا عمر حماه من السلطان . فسألتُ عن الحكاية فدافعني طويلاً ثم حدّثني فقال : ورثتُ من أبي مالاً جليلاً فأسرفتُ فيه وأتلفته حتى أفضيتُ الى بيع أبواب داري وسقوفها ، ولم يبق لي في الدنيا حيلة ، وبقيتُ مدةً لا قوت لي إلاّ من بيع أمي لما تغزله وتُطعمني ونفسها منه ، فتمنيتُ الموت . فرأيتُ في منامي كأنّ قائلاً يقول لي : غناك بمصر فاخرجْ اليها ! فبكرتُ الى ابي عمر القاضي وتوسلت اليه بالجوار والخدمة التي كانت من أبي لأبيه ، وسألته ان يزوّدني كتاباً الى مصر لأتصرّف بها ، ففعل . وخرجتُ فلما حصلتُ مصر . وصلتُ الكتاب وسألتُ التصرّف فسد الله علي التصرف حتى لم أظفر

(١) ذكر المقريزي في رسالته النقود الاسلامية (ص ٥٤ من طبعة الأب انستاس الكرملي) ان الأمير أبا العباس احمد بن طولون ، ضرب بمصر دنانير عرفت بالأحمدية ، وكان سبب ضربها هذه الحادثة التي وقعت له في الأهرام ، والعثور على الدنانير هناك . (٢) في المقريزي : لا يصاب بأجود منه . (٣) سيرة احمد بن طولون (ص ١٩٤ — ١٩٦) . (٤) نشوار المحاضرة (٨ : ١٠٤ طبعة المجمع العلمي العربي) .

بتصرف ولا لاحَ لي شغل ، ونفدتْ نفقتي فبقيتُ متحيراً وفكرت في أن أسأل الناس وأمدَّ يدي الى الطريق ، فلم تسمح نفسي بذلك . فقلت : أخرج ليلاً وأسأل الناس بين العشاءين ، فما زلت أمشي في الطريق وتأبى نفسي المسألة ويحملني الجوع عليها وأنا ممتنع الى ان مضى من الليل نصفه ، فلقيني الطائف[1] ، فقبض عليَّ فوجدني غريباً فأنكر حالي ، فسألني فقلتُ : رجلٌ غريب ضعيف ، فلم يصدقني وبطحني وضربني مقارع ، فصحتُ وقلت له انا أصدق ! فقال : هات ، فقصصتُ عليه قصتي من أولها وحديث المنام . فقال لي : أنتَ رجلٌ ما رأيت أحمق منك ، والله لقد رأيتُ منذ كذا وكذا سنة في النوم ، كأن قائلاً يقول لي : ببغداد ، بالشارع الفلاني ، بالمحلة الفلانية ، قال : فذكر شارعي ومحلتي ، فسكتُّ وأصغيتُ وأتم الشرطي الحديث . فقال دار يقال لها دار فلان ، فذكر داري واسمي ، وفيها بستان فيها سِدْرة[2] تحتها مدفون ثلاثون الف دينار ، فامضِ فخذها ، فما فكرت في هذا الحديث ولا التفت اليه وأنت أحمق فارقتَ وطنك وأهلك وجئتَ الى مصر بسبب منام ؟ قال : فقوي قلبي بذلك ، وأطلقني الطائف فبتُّ في مسجد ، وخرجتُ في غدٍ من مصر وقدمت بغداد ، فقلعت السدرة وأثرت مكانها فوجدتُ فيها قمقماً فيه ثلاثون الف دينار ، فأخذتها ودبرتُ أمري ، فأنا أعيش من تلك الدنانير وكما ابتعته منها من ضيعة وعقار الى الآن[3] » .

ومن أظرف الحوادث الواردة في هذا الباب وأغربها ، ما نقله ياقوت الحموي في ترجمة أبي بكر محمد بن احمد بن عبد الباقي الدقاق المعروف بابن الخاضبة ، المتوفى في سنة ٤٨٩ هـ (١٠٩٥ م) . واليك تفصيل الخبر : « ذكر أبو بكر ابن الخاضبة رحمه الله ، انه كان ليلةً من الليالي قاعداً ينسخ شيئاً من الحديث ، بعد ان مضى قطعة من الليل . قال وكنت ضيق اليد ، فخرجتْ فأرة كبيرة وجعلتْ تعدو في البيت ، وإذا بعد ساعة قد خرجتْ أخرى ، وجعلا يلعبان بين يديَّ ويتقافزان

(١) الطائف : العسس وهو الذي يدور في الليل حول البيوت حافظاً (تاج العروس . مادة : ط و ف) . (٢) السدرة : شجرة النبق . (٣) الفرج بعد الشدة للتنوخي (١ : ١٦٨ — ١٦٩ ، مطبعة الهلال سنة ١٩٠٣) .

إلى أن دَنَوا من من ضوء السراج ، وتقدمت إحداهما اليّ ، وكانت بين يديّ طاسة فأكببتها عليها ، فجاءت صاحبتها فدخل [1] مسرَبه ، وإذا بعد ساعة قد خرج وفي فيه دينار صحيح وتركه بين يديّ ، فنظرتُ اليه وسكتُ واشتغلت بالنسخ ، ومكث ساعة ينظر إليّ ، فرجع وجاء بدينار آخر ومكث ساعةً أخرى وأنا ساكت أنظر وأنسخ ، فكان يمضي ويجيء الى أن جاء بأربعة دنانير أو خمسة ، الشك مني ، وقعد زماناً طويلاً أطول من كل نوبةٍ ، ورجع ودخل مسربه وخرج وإذا في فيه جليدة كانت فيها الدنانير وتركها فوق الدنانير ، فعرفت انه ما بقي معه شيء . فرفعت الطاسة فقفزا فدخلا البيت . وأخذتُ الدنانير وانفقتها في مهم لي ، وكان في كلّ دينار دينار وربع [2] » .

وقد ساق لنا كمال الدين ابن الفوطي المؤرخ البغدادي الشهير ، خبر العثور على كنز دفين من النقود العتيقة في مدينة بغداد سنة ٦٤١ هـ (١٢٤٣ م) وهذا كلامه بالحرف الواحد : « وفيها [٦٤١ هـ] حُفر لميت في الشهداء بمقبرة باب حرب ، فوجد الحفار جرة مملوءة دراهم يونانية ، ومما ضُرب في الاسلام بالمدينة ، صلوات الله على ساكنها . فأحضرها الحفارون الى المحتسب ابن الجوزي ، فمضى بها الى دار الوزير ، فتقدّم اليه بالمضي الى هناك واعتبار الحفر ، فمضى ، وحفروا حوله فوجدوا جرة أخرى كان بها نحو عشرة آلاف درهم [3] » .

ومثل هذا الاكتشاف الخطير ، ما حصل في سنة ٦٤٧ هـ (١٢٤٩ م) ، وهو خبر طريف رواه ابن الفوطي ذاته بقوله : « وفيها [٦٤٧ هـ] أمر الخليفة بعمارة سور مشهد موسى بن جعفر عليه السلام ، فلما شرعوا في ذلك ، وجدوا بَرْنِيَّةً فيها ألفا

(١) الضمائر الواردة بعد ذلك كلها بالتذكير خلافاً لما يقتضيه السياق المتقدم .

(٢) معجم الأدباء (٦ : ٣٣٧ طبعة مرجليوث = ١٧ : ٢٢٨ — ٢٢٩ طبعة رفاعي) .

(٣) الحوادث الجامعة والتجارب النافعة في المائة السابعة (بتحقيق الدكتور مصطفى جواد . بغداد ١٣٥١ هـ ، ص ١٨٤) .

درهم قديمة ، منها يونانية عليها صوَر ، ومنها ضرب بغداد سنة نيف وثلاثين ومائه[1] ، ومنها ما هو ضرب واسط يقارب هذا التاريخ . فعرضت على الخليفة ، فأمر أن تُصرف في عمارة المشهد ، فاشتراها الناس بأوفر الأثمان ، وأُهدي منها الى الأكابر فنفذوا الى المشهد أضعاف ما كان يُحمل اليهم[2] » .

ولا يخفى على القارئ ما في هذين الخبرين من قيمةٍ في درس التاريخ والآثار معًا ، بكونهما يدلاّننا على وجود الشيء الكثير من النقود غير الاسلامية مطموراً في بغداد أو في ما جاورها من بقاع ؛ ويكون الثاني يشير الى عمارة سور أحد المشاهد المشهورة في العراق ، وذلك في عهد المستعصم بالله آخر خلفاء بني العباس ببغداد .

وفي الواقع ، إنّ النقود اليونانية شاعت في بعض جهات العراق ، خلال العصر السلوقي (٣١٢ — ٢٤٩ ق . م) . وقد عُثر في غير موطنٍ من العراق ، على نقودٍ من هذا القبيل تفرّقت هنا وهناك . ومن أثمن اللُّقى التي وقف عليها علماء الآثار في هذا الباب ، ما كشفت عنه بعثة جامعة مشيغان الأميركية ، سنة ١٩٢٧ — ١٩٣٢ من قطع النقود اليونانية المتعددة التي عثرتْ عليها في سلوقية المدائن على دجلة ، فوصفتها وصفًا دقيقًا في مجلدٍ حسن ، عنوانه :

R. H. Mc Dowell : Coins from Seleucia on the Tigris (1935) .

ولسنا نعلم بوجه التحقيق ، ما كان يصنع الناس يوم ذاك ، وهم في بغداد مثلاً ، بتلك النقود اليونانية حين عثورهم عليها ، أكانوا يتداولونها بينهم إلى جانب ما كان شائعًا عندهم من نقود بني العباس ، وهو رأي مستضعف ؛ أم كانوا يبعثون بها الى بعض البلدان التي قد تروج فيها مثل هاتيك النقود بالرغم من تَقادُم عهدها ؛ أم كانوا لا يتبعون هذا ولا ذاك ، بل يعمدون إلى قِطع النقود فيصهرونها أو يكسرونها أو يحتفظون بها ؛ بحسب ما يتراءى لهم أو بما تقتضيه مصالحهم ؟

(١) في هذا التاريخ نظر . فإن بغداد لم تؤسس إلا في سنة ١٤٥ هـ . فلعل الأصل « سنة نيف وثمانين ومائة » ، أو « سنة نيف وثلاثين ومائتين » . (٢) الحوادث الجامعة (ص ٢٤٤) .

وفي بعض مراجع تاريخ الاسلام ، روايات وأخبار أخرى مختلفة ، وفي بعضها ما يدلُّ على وقوف القوم على شيء من نقود اليهود ، عُثر عليها في صحراء سيناء .
قال المقريزي في هذا الصدد :

« واتفق انَّ المماليك البحرية لما خرجوا من القاهرة هاربين في سنة اثنتين وخمسين وستمائة (١٢٥٤ م) مرَّ طائفة منهم بالتيه ، فتاهوا فيه خمسة أيام ، ثم تراءى لهم في اليوم السادس سوادٌ على بُعد ، فقصدوه ، فاذا مدينة عظيمة لها سور وأبواب كلها من رخام أبيض ، فدخلوا بها وطافوا بها ، فاذا هي قد غلب عليها الرمل حتى طمَّ أسواقها ودورها . ووجدوا بها أواني وملابس ، وكانوا اذا تناولوا منها شيئاً تناثر من طول البلى . ووجدوا في صينية بعض البزّازين تسعة دنانير ذهباً عليها صورة غزال وكتابة عبرانية ، وحفروا موضعاً فاذا حجر على صهريج ماء ، فشربوا منه ماءً أبرد من الثلج . ثم خرجوا ومشوا ليلةً ، فاذا بطائفةٍ من العربان فحملوهم الى مدينة الكرك ، فدفعوا الدنانير لبعض الصيارفة ، فاذا عليها انها ضُربت في أيام موسى عليه السلام ، ودُفع لهم في كل دينار مائة درهم [١] » .

ومن طريف الأخبار الواردة في هذا الباب ، ما حصل في سنه ٦٦٢ هـ [١٢٦٣م] بمصر من العثور على فلوس عتيقة . وقد نقل لنا المقريزي خبر هذا الحادث في خططه بقوله : « وفي شهر رمضان سنة اثنتين وستين وستمائة ، أُحضر الى الملك الظاهر بيبرس ، فلوسٌ وُجدت مدفونة بقوص . فأُخِذ منها فلس ، فاذا على احد وجهيه صورة ملك واقف ، وفي يده اليمنى ميزان وفي اليسرى سيف . وعلى الوجه الآخر رأس فيه أذن كبيرة وعين مفتوحة . وبدائر الفلس كتابة ، فقرأها راهب يوناني ، فكان تاريخه الى وقت قراءته الفين وثلثمائة سنة ، وفيه : أنا غليات الملك ، ميزان العدل والكرم في يميني لمن أطاع ، والسيف في يساري لمن عصى . وفي الوجه الآخر : أنا غليات الملك ، أذني مفتوحة لسماع المظلوم ، وعيني مفتوحة أنظر بها مصالح ملكي [٢] » .

(١) خطط المقريزي (١ : ٣٤٤) . (٢) خطط المقريزي (١ : ٣٨١) وانظر أيضاً : شذرات الذهب لابن العماد الحنبلي (٥ : ٢٠٨) .

فلو أن شيئاً من تلك الفلوس سلم الى يومنا هذا ، لبلغ عمره الآن — ان صحت قراءة الراهب — نحواً من ثلاثة آلاف سنة ، ومعنى ذلك انها ضُربت قبل الميلاد بنيف والف سنة . فإلى اية دولةٍ كانت تعود ؟ وأين ضُربت ؟

وقد أشار غير واحدٍ من المؤرخين الى خبر وجود نقود قديمة في مدينة عسقلان سنة ٦٦٩ هـ [١٢٧٠ م] . فنقل ابن كثير ، ان السلطان الملك الظاهر « في مستهل صفر منها ، ركب من الديار المصرية في طائفةٍ من العسكر إلى عسقلان ، فهدم ما بقي من سورها مما كان أهمل في الدولة الصلاحية ، ووجد في الهدم كوزين فيهما الفا دينار ، ففرّقهما على الأُمراء [١] » .

وساق ابن تغري بردي[٢] هذا الخبر باختلاف يسير عما ذكره ابن كثير ، فاقتصرنا على الإشارة اليه .

وذكر ابن العماد الحنبلي في ترجمة شمس الدين أبي عبد الله محمد بن عبد الرحيم بن عبد الواحد بن أحمد المقدسي الحنبلي ، المتوفى سنة ٦٨٨ هـ (١٢٨٩ م) ، انه « كان يحفر مكاناً في جبل الصالحية لبعض شأنه ، فوجد جرّةً مملوءة دنانير . وكانت زوجته معه تعينه على الحفر . فاسترجع وطمّ المكان كما كان أولاً وقال لزوجته : هذه فتنة ، ولعل لها مستحقين لا نعرفهم ، وعاهدها على أنها لا تُشعر بذلك أحداً ولا تتعرّض اليه ، وكانت صالحةً مثله . فتركا ذلك تورعاً مع فقرهما وحاجتهما ، وهذا غاية الورع والزهد[٣] » .

والله تعالى وحده يعلم أين صار هذا الكنز ، وماذا حلّ به !

ومن الإخبار التي يحسن بنا إيرادها في هذا الصدد ، ما ذكره عبد الله بن فتح الله البغدادي الملقب بالغياثي الذي كان حياً في سنة ٨٨٣ هـ (١٤٧٨ م) : فقد قال في جملة أحداث سنة ٨٦٧ هـ (١٤٦٢ م) :

---

(١) البداية والنهاية في التاريخ (١٣ : ٢٥٨) . (٢) النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة (٧ : ١٤٩ طبعة دار الكتب المصرية) . (٣) شذرات الذهب (٥ : ٤٠٦) .

« بينما الأمير سيدي علي يعمر أرضاً برواق عزيز(١) ، إذ وقع بسرداب

(١) قال مصطفى جواد : ورد ذكر « رواق عزيز » أول مرة في عصرنا، في لغة العرب (٦ : ٣٤٨ السطر ١٣) ، ولكنه مصحّف إلى « رواق الغزر » ، وهو هناك منقول من كتاب الدرر الكامنة في ترجمة الشيخ حسن بك الكبير . قال ابن حجر : ولما كان في سنة ٧٤٩ توجه الشيخ حسن إلى تستر ... وعاد فوجد نوابه في بغداد قد وجـدوا في رواق الغزر ... » إلى آخر الحكاية المذكورة أيضاً في المطبوع (٢ : ١٤) . وفي المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي لابن تغري بردي . مرتين : الأولى في ترجمة الشيخ حسن المذكور بصورة « رواق العزيز » والثانية في ترجمة صفي الدين الأرموي بصورة [رواق عزيز] . ولا نشك في أن العزيز صفة للرواق ، وكان مثل هذا الوصف يعـدّ من [آداب رسوم الدولة العباسية] كما قالوا [الديوان العزيز] و [المخزن المعمور] و [العسكر المنصور] ، إلا أن الأعاجم لا ينطلق لسانهم بالتعريف فقالوا [رواق عزيز] . وكان هذا الرواق مشهوراً في بغداد حتى بقي اسمه إلى أيامنا في قول الناس [درب الرواق] وهو المصاقب للبنك الشرقي. وهم يسمون أيضاً درباً آخر في سوق العطارين يمنة جامع مرجان بدرب الرواق أيضاً . فكأنهما كانا يفضيان كلاهما إلى الرواق . وقـد ورد ذكره في الحوادث الجامعة (كما في ص ٢٩٦) في أخبار مجاهد الدين ايبك الدويدار الصغير : [فلما دخل دار الخليفة ووقع نظره (أي نظر المستعصم بالله وذلك سنة ٦٥٣ هـ) عليه ، قبـل الأرض ... ثم عـدل به الى الرواق وخلع عليه وعلى ولديه ...] .

ويهمنا كثيراً أن نعرف موضع هذا الرواق ، قال بل نقل ابن تغرى بردي في المنهل الصافي ، حكاية صفي الدين عبد المؤمن الأرموى عن نفسه : [ثم ان الخلافة وصلت إلى المستعصم فعمر خزانتي كتب متقـابلتين برواق عزيز وأمر أن يختار لهـا كاتبان يكتبان ما يجيد ...] . وقال ابن عبـد الحق في المراصـد [مادة : منظرة الريحانيين] : (منظرة الريحـانيين : منظرة على السوق المشهور المعروف بالريحانيين في وسط بغداد ، تباع فيـه الرياحين والفواكه ، ويتصل بسوق الصرف وغيره . وهذه المنظرة أحدثها المستظهر بالله ، وهي متصلة بالدار التي كان يسكنها الخليفة ، ومن ورائها بستان كبير متسع ، وفيه خزانتان متقابلتان للكتب ، أنشأهما الإمام الشهيد المستعصم بالله من وراء المنظرة ، وهي بباب بدر وهو أحد أبواب دار الخلافة وكان أولاً يسمى باب الخاصة ...) .

وهذا يدلنـا على ان رواق عزيز كانَ متصلاً بالبستان هو ومنظرة الريحانيين وقربها الخزانات . وإذ كان باب بدر من البدرية ، وكانت البدرية في الموضع الذي وراء جامع مرجان حتى لأكاد أظن أن موضع جامع مرجان كان خالياً من بنـاء لأنه كان ساحة للبدرية ، وجب أن يكون الرواق في البقعة التي بين البنك الشرقي وجامع مرجان حتى أملاك الخضيريّ التي كانت خاناً .

أما البستان والمنظرة فقد ذكر ابن عبد الحق حالها في المراصد أيضاً [مادة : دار الريحانيين]—

فيه مال عظيم من الذهب الأحمر ، فأعلم بها بيربوداق[١] . ووزنوها ، فكانت سبعمائة مَنّ بوزن تبريز ، سبع قناطير حلبية ، كلها مسكوكة بسكة الخليفة الناصر لدين الله[٢] . ذهب إبريز تام العيار ، وكان من أموال الخليفة الناصر ، وقد دفنه وزرع فوقه الشجر والنارنج حتى لا يفطن به . وكذلك كان قد فعل الخليفة الناصر ، فانه كان مولعاً[٣] بجمع الذهب وحبه ، لكن جميع ما دفنه استخرجه ولده المستنصر[٤] ، وله قصة طويلة وأخرجه على العمارات وأبواب البرّ . وأراد سيدي علي ان يجعل تلك الأرض ديوان خانة ، فبينما البناؤون يحفرون الأساس وقعوابها . وتكلم الناس ، فقال بعضهم : هذه عناية في حق بير بوداق . وكان المملوك بحلب ، فقال[٥] : هذه موعظة وتحذير ونكال من الله في حقه ، أما الموعظة والتحذير أعطاه ذلك المال ليكفّ عن ظلم العباد وأذاهم فلم يفعل ، بل زاد في غيّه وظلمه ، فصار نكالاً عليه[٦] » .

ومثل هذا ما ذكره ابن حجر العسقلاني بصدد العثور على كنز آخر في رواق عزيز الذي ربما بقي شيء من كنوزه حتى اليوم . قال في ترجمة الشيخ حسن بك حاكم العراق ، المتوفى سنة ٧٥٧ هـ ، « انه لما كان في سنة ٧٤٩ (١٣٤٨ م) توجه الى تستر ليأخذ من أهلها قطيعة قرّرها عليهم ، فأخذها وعاد ، فوجد نوّابه

—— قال : (... قلت : خرب أكثر هذه الدار وبقي بستانها لا غرس فيه ولا زرع الى قريب . فعمر وغرس به غرس يسير) .

هذا ماعلمته من صفة [رواق عزيز] وتاريخه ، وتسمية الناس التي أشرتُ اليها تؤيد ما ذكرت من حيث الموضع والتاريخ (انتهى كلام الدكتور مصطفى جواد) .

(١) راجع أخبار [سيدي علي] و [بير بوداق] في المجلد الثالث من [تاريخ العراق بين احتلالين] للمحامي عباس العزاوي . (٢) دامت خلافته ببغداد من سنة ٥٧٥ الى ٦٢٢ هـ .

(٣) في المخطوط : فان كان مولع . (٤) المستنصر حفيد الناصر . وعن الدكتور مصطفى جواد : ان هذا وهم من المؤرخ ، فان الذي أخذه المستنصر هو بركة الذهب المشهورة .

(٥) الكلام للغياثي . (٦) التاريخ الغياثي (نسختنا الخطية المنقولة عن نسخة الأب أنستاس ماري الكرملي . ص ٢٧٧) .

في بغداد قد وجدوا في رواق الغزر [كذا . والصواب رواق عزيز] ببغداد ، ثلاثة قدور مثل قدور الهريسة ، طول كلّ واحد منها نحو ذراعين ونصف ، والثلاثة مملوءة ذهباً مصرياً وصورياً ويوسفياً ، وفي بعضٍ سكةُ الناصر البغدادي . فيقال جاء وزن ذلك أربعين قنطاراً بالبغدادي [١] » .

وفي زماننا هذا ، يقع الناس على النقود القديمة باتفاقات ومصادفات مختلفة . ولكن أغزرها كميةً وأجلها شأناً ما يُعثر عليه في أثناء التنقيبات الآثارية في أخربة المدن الدارسة وفي بطون التلال والمواطن القديمة التي لا تُحصى ، فيتهافت عليها مَن يُعنى بالنقود العتيقة من رجال العلم ، فينظفونها مما علق بها من أدران خلال العصور المتطاولة التي مرّت عليها . ثم يعمدون الى قراءتها ، وتصنيفها ، ووصفها وصفاً دقيقاً مفيداً ، يودعونه بطون تآليفهم التي يجني منها الباحثون والمؤرخون أشهى الثمار التاريخية الفنية .

(بغداد) كوركيس عواد

---

(١) الدرر الكامنة (٢ : ١٤) . وترجمة الشيخ حسن بك ، نشرها أول مرة المستشرق فريتس كرنكو في مجلة لغة العرب (٦ (١٩٢٨) ص ٣٤٨) .